

الدكتور إبراهيم السامرائي،

”العربية بين أمسها وحاضرها“

(بغداد، وزارة الثقافة والفنون، 1978) 252 صفحة

بقلم: الدكتورة اجسام مرهون الصغار
كلية الآداب - فاس.

الكتاب لدراسة العربية (في أمسها) ، وان (حاضرها) لم يخصص له الا الخاتمة التي لا تشغل الا صفحة واحدة . ولعلنا نلتبس حجتيين لاستاذنا الفاضل نستنبطها من خلال قراءتنا للكتاب :

الاولى : انه ذكر في المقدمة بانه (اذا كان لنا ان نضمن سلامة العربية وان تكون اداة صالحة ناعمة في عصرنا هذا ، وجب علينا ان ندرسها درسا تاريخيا نستجلي اصولها وقواعدها ولا بد ان نعرض لتاريخ هذه اللغة العريقة فنتبين مراحلها ، واحوالها وكيف تهيأ لها ان تواجه العصور والحضارات ...).
المقدمة ص 5 .

والحجة الثانية في عدم تخصيصه فصلا عن حاضر العربية انه حاول ان يربط مواد بعض الفصول التي هي في مادتها مبحث في تاريخ اللغة العربية ، حاول ربطها بحاضر العربية المستعملة حاليا سواء في رده على بعض التهم الشائعة في عصرنا هذا - ضد العربية - او في ربط بعض المباحث والمواد اللغوية المستعملة حديثا باصولها الاصلية في اللغة العربية القديمة ، مسجلا تعليقات قيمة في هذا المجال وسوف نقف عند هذا الربط او بعضه في خلال عرضنا لنصول الكتاب.

تعتبر دراسة تاريخ اللغة العربية ، وربطها بحاضرها ، ومعرفة تطورها ، وسبل تنقيتها وجعلها لغة حضارة وعلم من الموضوعات المهمة التي تشغل بال الفيورين على سلامة اللغة العربية ومستقبلها . ومن هنا جاء موضوع كتاب الدكتور الفاضل ابراهيم السامرائي « العربية بين أمسها وحاضرها » موضوعا وبحثا جادا في هذا الميدان .

وقبل ان نعرف بالكتاب المذكور لا بد ان نقف عند اسم مؤلفه الذي لا نشك ان مهتما بالدراسات اللغوية يجهل اسمه ، فهو من اساتذة جامعة بغداد الذين جاوزت شهرتهم الحدود الإقليمية لتنتشر بين جل الباحثين في الوطن العربي . والدكتور السامرائي من ادلوا دلوهم في سبيل خدمة اللغة العربية ، وكشف حجب الضباب عما اندثر من موضوعاتها ، اضافة الى تحقيقه العديد من كتب التراث .

يتبع الكتاب في ثلاثة ابواب : الباب الاول نسي ستة فصول والثاني في اربعة فصول والثالث في خمسة فصول ثم الخاتمة .

ان القارئ يدرك - اول وهلة - من قراءة عناوين الفصول ان المؤلف الفاضل قد خصص معظم

وقد تناول في الفصل الأول من الباب الأول ، موضوع بدء الدرس اللغوي ، وفي الفصل الثاني رواية اللغة (الرواية في البصرة) . وفي الفصل الثالث المروي عند البصريين ، والفصل الرابع اللغة والرواية في الكوفة ، والفصل الخامس آثار البصريين اللغوية ، والفصل السادس آثار الكوفيين اللغوية .

ومن الواضح ان عناوين الفصول هذه تخص جانباً مهماً ، لا بد أن يكتب فيه كل من يرصد كتابة تاريخ اللغة العربية ، ولذا جاء افتتاح المؤلف الفاضل كتابه بهذا الباب ضرورة يقتضيهما البحث ، وهو يذكرنا بجهود كبيرة تمت في هذا الميدان مثل كتاب الدكتور مهدي الخزومي (الدرس اللغوي ببغداد) وكتابه الآخر « مدرسة الكوفة » ، وكتاب الدكتور ناصر الدين الأسد الذي تناول مسألة الرواية الشعرية بصورة خاصة ... وبحوث الدكتور عبد الحميد الشالقاني التي تناول فيها دور الإعراب الرواة في حفظ اللغة العربية ، وما أدخل ذلك من وضع أو اقتان أو تجويد في نقل مفردات وكتوب لغتنا العربية مثل كتابه « الإعراب الرواة » و « رواية اللغة » .

الا أن فضل أستاذنا الجليل في هذا الباب يتجلى في انه استطاع أن يقدم للقارئ صورة واضحة ميسرة لهذه المعارف لتكون له مقدمة وتبهيذا يعرف بها تاريخ جمع اللغة العربية ، ويبدء الاهتمام برواية مفرداتها وحفظ شواهداها .

أما الباب الثاني فقد تناول في الفصل الأول منه موضوع اللهجات العربية ، وفي الفصل الثاني اللغة بين البداوة والحضارة ، وفي الفصل الثالث اللحن ودلالاته ، وفي الفصل الرابع بحث موضوع العربية التاريخية . وقد اعتبر القرآن الكريم المادة التي ينظر من خلالها الى تاريخ هذه اللغة ، وكيف انتهت الى ما نسميه العربية الفصحى لئلا يدخل في مشكلة نصوص العربية القديمة في الاحتجاب التي سبقت القرآن ، ولئلا يدخل في موضوع الانتحال وما سائر قضية الشعر الجاهلي من شكوك أو مطاعن . ومن هنا تحدث عن القراءات وتاريخ نشوئها ، وعن المصحف العثماني ثم القراءات الشاذة ومن ألف فيها ، واهتمام اللغويين بها بصورة خاصة ، خاتماً الفصل بنصوص من كتاب مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ومن كتاب المحتسب لابن جنس .

أما الباب الثالث فيعتبر الفصل الثاني منه من

أمتع فصول الكتاب من حيث مادته وربط الكلمات العربية المستعملة في عصرنا هذا بأصولها في العربية القديمة مع شواهداها الطريفة ، فهو اذن بحث تطبيقي لبعض الالفاظ العربية التي يتبين من خلال دراستها مدى قوة العربية وأصالتها ، وغرضه في ذلك الرد على قول بعض المعاصرين الذين يرون ان اللغة في النصوص القديمة هي لغة بدوية ، ويتوجهون بالنقد القاسي ضد المعنيين بتدريس هذه اللغة التي فرض عليها أن تسائر العصر بطرائق العصور المتأخرة ، وما زالت مصنفات القرن السادس والسابع الهجريين ، بل حتى القرون اللاحقة هي متطوع العلم ، ومفصل الراي في علم النحو ... ونقول ان رأي المؤلف الفاضل - في هذا الفصل - طريف جدا فهو لا ينكر صحة النقد القاسي الذي أشرنا اليه ، بل يرى ان هؤلاء الدارسين لو التزموا بمنهج العلم القائم على الموضوعية لانتهوا الى نتائج اخرى تضيف الى بدواة اللغة مادة جديدة ص 125 . ومن هنا يقوم المؤلف بتطبيق مقولته هذه ليبين قوة العربية وأصالتها في كونها اتخذت مادة البداوة وسائل للإعراب عن مختلف مظاهر الحضارة ، فيختار اولا كلمة مستعملة في لغة أهل عصرنا هذا (عصر العلم والتكنولوجيا) وهي كلمة الركب في قولهم (البلدان المتخلفة عن ركب الحضارة) فكلية (ركب) في أصولها مادة بدوية مفرقة في البداوة من ركب البعير وركب الناقة او الفرس ، والمركب للدابة بوجه عام الا انها سائرت المعاني المختلفة التي اقتضتها مظاهر الحضارة المتطورة فعبرت عن معان مجازية حتى وصلت الى العصر الحديث (ماذا سمعنا من يقول البلدان المتخلفة عن ركب الحضارة) ادركنا قوة هذه الكلمة ، وحيويتها التي تثبت طوال هذه المسيرة الى ان انتهت الى شيء يتصل بالعصر الحديث ، وذلك ان المشتغلين بالكيمياء في عصرنا يعرفون المركب الكيمياوي أو التركيب الكيمياوي) ص 129 . وعلى هذا النهج يبحث كلمة الخيلاء والمقل والحكمة والرحل ... الخ من الالفاظ التي تثبت أصالة اللغة العربية وكيف أن الاستعراء يفيدنا بان العرب قديما قد استمدوا من هذه الالفاظ البدوية الالفاظا طوروها ، وعبروا عن كثير من جوانب الحياة الحضارية التي جدت في حياتهم (وهذا يعني ان هذه اللغة العربية قد تجاوزت المراحل وعاصرت الحضارات فكانت اداة حكيمة للإعراب عن الجديد فهي أبدا متطورة ، وهي أبدا صالحة للإعراب عن الجديد الوافد) ص 142 .

أما الفصل الرابع فقد جمع فيه الدكتور السامرائي مجموعة كبيرة من الألفاظ المستعملة في العربية على صيغة فاعول مقارنا ذلك بما ورد في السريانية ، وبذا يمكن أن يجد في هذا الفصل مجموعة من الألفاظ على صيغة فاعول أو فاعولة عربية الأصل ، أو كذا رجح المؤلف ، ومجموعة أخرى سريانية الأصل ، وثالثة من الألفاظ السامية المشتركة .

وهذا الفصل يشهد بفضل المؤلف في اغناء القراء بمعلومات عن صلة العربية بأختها السريانية معتمدا في ذلك على الشواهد اللغوية القديمة وموضوع العربية وعلاقتها بالسريانية من الموضوعات المهمة التي كتب فيها علماء اللغة والمختصون في العصر الحديث مثل يوسف حبيب البسكتاوي : الألفاظ السريانية الآرامية في اللغة العربية بموجب التاموس المعروف (دليل الراغبين في لغة الآراميين) ليعتوب متى الكلداني نشره بطرس سياره بمجلة المشرق عدد يوليو 1963 في ص 463 - 500 وله بقية في الإعداد الأخرى .

وبحث أحمد عبد الرحيم السائح (اللغة العربية بين اللغات السامية) وهو بحث نشر في مجلة « اللسان العربي » الغراء ج « 1 » م « 7 » 1970 ، ومثل كتاب « اللغة العربية وصلتها باللغات السامية » للاستاذ ناجي خليل يحيى وكتاب « المدخل الى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية » لعبد المجيد عابدين ، وكتاب أسحاق ساكا (اثر اللغة السريانية في اللغة العربية كتابة ونحوا والفاظا) - الخ ، من البحوث القيمة التي توضح علاقة العربية بأخواتها اللغات السامية .

وقد استقصى الدكتور السامرائي كثيرا من الألفاظ المستعملة باللهجة العراقية الحديثة مع الإشارة الى وجود الكلمة أو الكلمات في اللغة العربية القديمة وذكر من أكد عربيتهما أو سريانيتهما من الباحثين . وكما كان بوجدنا ان يضيف الدكتور الفاضل الى هذه الألفاظ مجموعة أخرى ما تزال بعض الألفاظ العربية تستعملها - على صيغة فاعول أيضا - مثل تادوس وغاسول وسارود وتاموس أو تاموسية عند أهل المغرب وغيرها من الألفاظ في لهجات عربية أخرى ، وربطها بالعربية القديمة وبذا يتم جوانب بحثه القيم في اصالة اللغة العربية وحيويتها على مر العصور .

أما الفصل الخامس فانه بحث (في عربية محلية) وقد اختار البصرة لانها مهد الدراسات العربية الجادة نحوا وصرفا ولغة ، ولان المجتمع البصري مجتمع غريب نادر مفيد للدارس التاريخي ، فقد حفلت هذه المدينة ببنية اجتماعية تقرب مما ندعوه في عصرنا بالبيئة العالمية ... ص 221 .

والالفاظ التي اختارها الدكتور الفاضل بعضها مما يمكن أن يعد بصريا ، وقد اشار الى استمرار استعماله في لهجة أهل البصرة حاليا ، والبعض الآخر - وان ورد في نصيوص بصرية مثل كتاب البخلاء للجاحظ - لا يمكن تخصيصه واعتباره بصريا لانه من ألفاظ الحضارة التي دخلت المجتمع العربي الاسلامي واستعمله أهل البصرة وغيرهم من العرب والمسلمين ، ومع ذلك فستبقى هذه الدراسة نموذجا جيدا للدراسة اللغوية التطبيقية مع مقارنتها بالعربية النصيحة القديمة .

وأخيرا ينهس المؤلف الفاضل بحثه بخاتمة موجزة غاية الأيجاز بشأن العربية المعاصرة او الحاضرة ، وكما كان بوجدنا ان يوسع تطبيقاته اللغوية التي اعتاد القاريء أن يجدها في بحوث المؤلف الأخرى ليخرج بفكرة واضحة عن واقع العربية او (العربية بين أسسها وحاضرها) خاصة وان المؤلف الفاضل قد جس مواضيع الداء ، وشخص وسائل السدواء التي تجمل من اللغة العربية الحاضرة لغة حضارة جديدة معاصرة كما كانت لغة الحضارات السابقة . وقد اجمل في هذه الخاتمة ما سماه بالتجارب القديمة والحديثة مما يعين على حل المشكل . ومن التجارب :

- 1 - الترجمة وهي ان نترجم المصطلح العلمي .
- 2 - التعريب وهو ان نأخذ المصطلح الاجمعي فنعربه مع الحفاظ على شيء من أصواته او بتغيير شيء منها الى الاصوات العربية .
- 3 - ان نكفل سلامة اللغة باستعمال النصيحة وعدم اللجوء الى العابية وهذا يتطلب منا ان نعمل على تيسير النحو - وان هذه السلامة المرجوة لن تتأتى الا بعد ان نكون قد عرفنا من تاريخ اللغة ما يعين على تهيئة معجم تاريخي وآخر حديث معاصر . وأخيرا ، لرجو ان أكون قد وضحت المعالم والخطوط العامة لكتاب الدكتور ابراهيم السامرائي آملة الانتفاع منه بقرائته ومراجعته ، ولاستأنسا المؤلف تحية احترام وتقدير .